صحراء الرهبنة

مينا بديع عبدالملك

كيليا ثانى أقدم تجمع رهبانى فى العالم. وقد بنيت كنائسها باستخدام الطوب الرملى. وأكثر مبانيها قدماً يعود للقرنين الرابع والخامس الميلاديين



رسم للصليب به عدد من الزخارف

■ تعد منطقة كيليا[٢] (أو القلالى) هي ثاني أقدم تجمع رهباني في العالم. وقد أقامها الأب آمون عام ٣٣٥ ميلاديا أي بعد عشر سنوات من تأسيس منطقة نتريا للرهبنة. وتقع كيليا في منتصف المسافة بين مدينتي دمنهور والسادات.

كان الغرض من تأسيس منطقة كيليا توفير مكان إضافي للرهبان الذين تزايد عددهم في منطقة نتريا وضاق بهم المكان بحيث أصبح غير مناسب للصلاة والوحدة الانفرادية، بالإضافة إلى إيجاد موقع للتوقف بين نتريا وصحراء الأسقيط الموحشة (وادي النطرون حاليا. والذي يعد ثالث أقدم تجمع رهباني في العالم بعد كيليا).

هذه المنطقة التي ازدهرت منذ القرن الرابع الميلادي وحتى السابع الميلادي عانت من هجوم الزراعات العشوائية عليها والتي قضت على كثير من الآثار المتبقية فيها، وجاء ذكرها في كتابات المؤرخين والرحالة مثل: يوحنا كاسيان، روفينوس، بلاديوس، ساويرس بن المقفع مؤلف كتاب تاريخ البطاركة، وكتابات اليعقوبى في القرن التاسع الميلادي، والرحالة العربي البكري في القرن الحادي عشر الميلادي والتي ذكرها كمكان مهجور.

فى عام ١٩٣٢ قام عالم الآثار الايطالي بريتشيا Bereccia برسم خريطة للمنطقة، ثم دى كوسون De Cosson عام ١٩٣٧ الذي نبه إلى أهمية منطقة «قصور الربيعات» بكيليا. لكن الموضوع لم يأخذ شكلا جديا إلا في عام ١٩٦٤ على أيدي أعضاء بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة وبعثة جامعة جنيف بسويسرا حيث اكتشفوا وحددوا المكان وقاموا بالحفائر في أكوام مختلفة من الآثار وتم ترقيم كل كوم منها، كما تم تحديد حوالي

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس

١٥٠٠ كوم أثري للنساك في مساحة ستة عشر كيلومترا مربعا.

قلاية لكل راهب

كان موقع كيليا - مع بداية نشأته - يغطي مساحة أكثر من مائة كيلومتر مربع، ويشتمل على خمسة مجمعات من المباني تسمى قصورا وهي: قصور الربيعات، قصور العزيلة، قصور عيسى، قصور الحجيلة، قصور العريمة. هذه المجمعات الكثيفة تفصلها أحيانا مسافة تقل عن عشرين مترا، مما يوحي للنظرة الأولى أنها مدن أو قرى أقيمت بطريقة عشوائية لم يخطط لتطورها. إلا أن حقيقتها قد تكشفت عند التنقيب في أحد هذه المجمعات الرهبانية. فقد وجد أن كل مبنى عبارة عن وحدة متكاملة قائمة بذاتها. فهي تحتوي على بئر وحديقة داخلية ومكان للصلاة وكذلك مكان للتخزين. والمباني الوحيدة ذات الطابع الاجتماعي هي بيوت الصلاة التي يتراوح عددها بين الواحد والثلاثة لكل تجمع، وتمثل جزءا مكملا للتجمع. روعي في انتشار التجمع الحفاظ على النظام الأساسي للقلاية، بالرغم من أن بعض المساكن كانت مترامية الأطراف ككهوف مظلمة تحت الأرض التي كان يأوي إليها رهبان مصر الأوائل.



وقد بنيت قلالي وكنائس كيليا باستخدام الطوب الرملي المصنوع من الرمال المجاورة والذي يعتمد تماسكه على درجة تركيز الأملاح المعدنية الموجودة به، كما غطيت الحوائط الخارجية بطبقة من الملاط تقيها من هطول مطر الشتاء المتكرر. أما حوائط الحجرات فقد غطتها طبقة من الملاط الخشن وزينت ببعض الرسومات. واستخدمت طريقة البناء هذه أيضا في المباني الكبيرة ذات العقود نظرا لندرة الحصول في مصر على الخشب اللازم لإقامتها.

أكثر المباني قدما من القرنين الرابع والخامس طمرت تحت الرمال،





أعضاء من البعثة السويسرية يعملون بالمنطقة

وحجراتها من الحجم المتوسط تصلها بعضها ببعض مجموعة من الممرات الضيقة. ومن المعتقد أن الرهبان قد قاموا بأنفسهم ببناء القلالي الأولى. وكانت زخارفها بدائية لا تتعدى بضعة أشكال على سطح الجدران، تمثل في معظمها رسم الصليب، الذي يعد الرسم المشترك في أنحاء مباني منطقة كيليا. كانت هذه القلالي القديمة يسكنها راهب واحد فقط لديه رغبة صادقة في حياة الوحدة. هذه القلالي قليلة العدد، وبقاياها القليلة صمدت عبر الزمن.

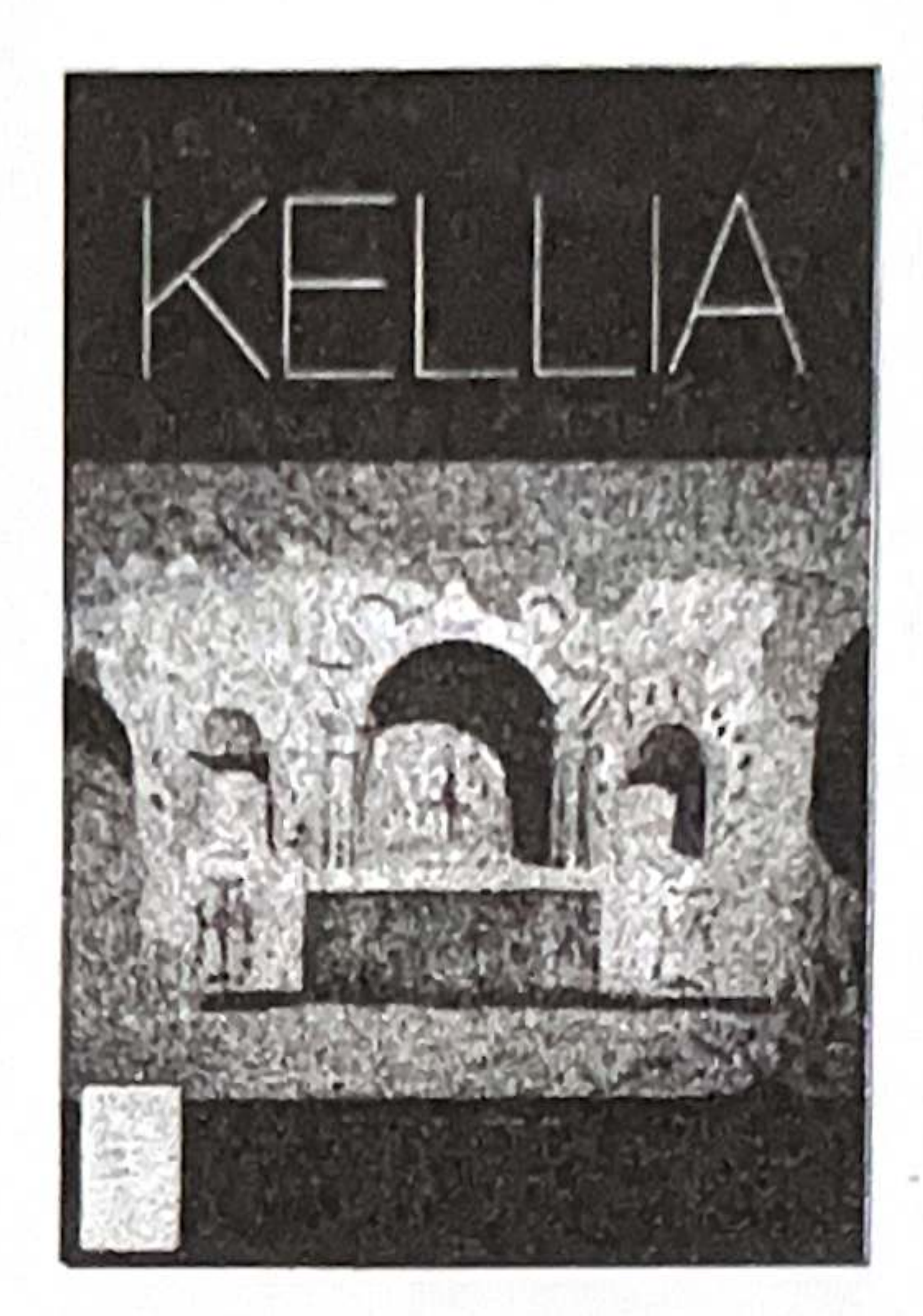
بحلول القرن السادس أصبح بناء التجمعات أكثر مشقة، كما أن اتساع الحجرات يدل على رغبة شاغليها في درجة أكبر من الراحة. وعلى هذا أصبحت طرق البناء أكثر تعقيدا مما تطلب إسناد العمل إلى حرفيين حقيقيين، من معماريين ونجارين ونقاشين، وبذلك أصبح المجمع التقليدي مستطيل الشكل تحيطه جدران سميكة ترتفع عدة أمتار تعزله عن العالم الخارجي وتحميه من العواصف الرملية. وتبلغ مساحة المباني ٢٥ - ٣٥ مترا، ويحتل فناؤها

الجزء الأكبر منها. وتوجد في الفناء تجهيزات متعددة كالبئر المحاطة بقنوات عديدة مصنوعة من الطوب المحروق والتي توزع الماء على الحديقة الداخلية وتمتد أحيانا إلى حديقة خارجية. وتشغل حجرة المعيشة الركن الشمالي الغربي والتي تعتبر قلب المبنى حيث تشتمل على وحدة أو أكثر تتكون كل منها من حجرات عديدة يمكن الوصول إليها عن طريق باب في الفناء. وهكذا أصبح لكل راهب في هذا المجمع قلايته الخاصة التي يمكن اللجوء إليها للاعتزال عن بقية الرهبان.



وتحيط القلالي بالكنيسة التي تعتبر أهم المباني، والتي يسمح في بعض الأحيان للزائرين بدخولها بعد أن يمر الزائر بعدد من الحواجز التي يشرف عليها كبير رهبان التجمع الرهباني - يطلق عليه اسم «ريتة الدير» - ومنها البوابة الخارجية التي تغلق من الداخل. ومن خلال مجموعة من الأبواب يمكن أن يصل الزائر إلى الرواق المزين بالزخارف المتنوعة، ومنه ينزل إلى ممر مزود بباب ذي ضلفتين يؤدي في النهاية إلى الكنيسة، وذلك إذا كان قد سمح له أصلا بالزيارة، إذ إنه من المعتاد في خلال فترة الأصوام تغلق الأديرة أبوابها حتى يتفرغ الآباء الرهبان للعبادة وعدم الانشغال بزيارات وأحاديث الزوار وأخبار العالم المتنوعة.

لكل قلاية رغم بساطتها، حجرة للصلاة وأيضا لكي يمارس فيها الراهب قوانينه التي تشمل الواجبات التي ينبغي عليه أن يؤديها يوميا. وتشتمل بعض الوحدات على مبان ضخمة مثل أبراج المأوى (الحصون) والكنائس. ولم يظهر الحصن المربع الشكل ذو الجدران السميكة في كيليا حتى القرن السابع. وقد يرتفع الحصن إلى سبعة أو ثمانية أمتار، وملحق به كوبري متحرك مرتفع عن الأرض بحيث يمكن الوصول إليه عن طريق سلم في الفناء. ومن الواضح أن الغرض من بناء الحصون هو الالتجاء



إليها درءا للأخطار التي تمثلها هجمات بدو الصحراء بغرض السرقات.

عانت منطقة كيليا من نقص الأخشاب والطوب المحروق والملاط أو الجير وتم استخدام الطوب المحروق في تدعيم أماكن حفظ المياه وغيرها من الأماكن المعرضة للماء. وجاء على لسان أحد رهبان منطقة كيليا، وهو الأب بيمن Pimen ، ذكر للأخشاب حينما قال: (لم نتعلم أن نغلق الأبواب الخشبية وإنما بالأحرى فمنا).

عالم من الفخار

استخدم الصانع في منطقة القلالي كثيرا من الأوعية الفخارية داخل الجدران. ويرجح الباحثون أن استخدام هذه الأواني ربما لتقليل الرطوبة في تلك المنطقة أي لعزل المبنى عن الخارج. وهنا تكشف الباحثة السويسرية ماري-ايزابيل كاتن Marie-Isabelle Cattin النقاب عن فخار منطقة كيليا. فقد عوض الفخار النقص الشديد في المعادن والأخشاب. فهو يمثل نحو ٩٨٪ من مجموع متاع الرهبان في ذلك التجمع، وكانت قد جرت العادة في منطقة كيليا أن يتخلص الرهبان من الفخار القديم أو المكسور في مكان مخصص لذلك مما أدى إلى تراكم أنواع من الفخار فوق بعضها كل منها يمثل عصرا أو فترة من الزمن مما يمكن العلماء من دراستها.

ومن الاستخدامات التي شاعت للسيراميك من هذا الفخار استخدامه في أرضية المطبخ بما يشبه السيراميك الحديث. كذلك تم تصنيع جميع أدوات المطبخ من هذا الفخار مثل أوعية الطهي أو أوعية ذات أغطية لحفظ الطعام. وأوعية تخزين الماء والأطباق والأقداح والمغارف، والأوعية ذات المسامية العالية لحفظ الحبوب، وبعض الأدوات الكنسية مثل قارورة زيت الميرون (أو الزيت المقدس) وعلبة البخور. كما شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو، وقد بلغ فهم قاطني منطقة كيليا لطبيعة البيئة أن استخدموا كسر الفخار في تكسية الجزء السفلي من حوائط المباني لمقاومة عوامل التعرية وخاصة في حالة هطول الأمطار الشديدة.

كنائس المحبة

لم يتبق من كنائس منطقة كيليا إلا القليل جدا، فمن بين ١٥٠٠ مبنى في كيليا لم تتمكن البعثة السويسرية من التعرف إلا على عشرة منها فقط. وقد أقيمت الكنائس دائما داخل أسوار المجمعات القديمة. وجرت العادة على أن يقتصر استخدامها مرة واحدة في الأسبوع من ليلة السبت وحتى فجر الأحد لأداء صلوات القداس الإلهي لجميع الرهبان من قاطني منطقة كيليا. وكانت الكنائس تتميز ببساطة تخطيطها البدائي، فهي تتكون من صحن كبير ذي عقود، مقسم إلى جناحين أو ثلاثة، تمتد في اتجاه الشرق لتصل إلى الهيكل الذي يوجد على جانبيه خورسان في الناحيتين البحرية (أي الشمالية) والقبلية (أي الجنوبية).

وتتصل بالكنائس أحيانا عدة حجرات منفصلة عن بقية المجمع، ومن المرجح أنها كانت تستعمل في خدمة حاجات الكنيسة، وبالأخص في إعداد وليمة الأغابي Agapi (كلمة يونانية تعنى المحبة)، وهي الوجبة التي يشترك فيها جميع أعضاء المجمع المتواجدين في صلاة القداس الإلهي.



بازدحام المنطقة بالوافدين في النصف الثاني من القرن السابع، حدثت طفرة في البناء في معظم مناطق كيليا، فتم تجديد وتوسيع التجمعات القديمة. فبلغ اتساع الحجرات إلى المدى الذي يسمح به البناء بالطوب الرملي، وبلغ اتساع عقود صالاتها إلى أكثر من ثمانية أمتار، وغطيت جميعها بطبقة من الملاط.

وبحلول القرن الثامن الميلادي، لم يتبق من مباني كيليا سوى مبان قليلة يسكنها رهبان مسنون يقدمون خدماتهم للحجاج المسلمين المارين بهذا الطريق. وفيما بعد استخدمها البدو للاحتماء بها من تقلبات الجو إلى أن طمرتها الرمال وظلت المنطقة في صمت وسكون طوال اثنى عشر قرنا من الزمان !! حتى تم اكتشافها على أيدي أعضاء البعثتين الأثريتين السويسرية والفرنسية في عام ١٩٦٤.

مهارة الفنان القبطي

على جداريات قلالي الرهبان بمنطقة كيليا، تسجل العديد من الرسومات المتعددة منها أشكال الصليب المختلفة وأنواع من الزخارف النباتية والطيور وصور القديسين بالإضافة إلى الرموز ذات المعنى الروحي. ونظرا لافتقار منطقة كيليا في الخامات الحجرية المتميزة مثل الرخام والحجر الجيري الجيد، لجأ الفنان إلى الرسومات والزخارف لكي يعوض هذا النقص، وبدلا من نحت أعمدة حقيقية عالية التكلفة فإنه قام برسم هذه الأعمدة بحرفية عالية جدا، بالإضافة لاستخدام تقنية حسب القوالب الجصية.

كانت أكثر الأماكن بمنطقة كيليا غنية بالزخارف والرسومات هي الكنائس وقاعات الصلاة وحنية الصلاة بقلاية الراهب: فقد كان الحائط الشرقي (يطلق عليها اسم الشرقية) يحمل الكثير من رسومات العهد الجديد مثل رسم السيد المسيح يحوط به الآباء الرسل وبعض الآباء من مؤسسي منطقة كيليا مثل القديس أنطونيوس أب الرهبان (الذى حدد موقعها ووضع بها الأساس الأول وهو الصليب عندما زارها بصحبة الأب آمون عام ٣٣٥ م)، والقديس آمون (مؤسس



شهدت مباني كيليا تجهيزات متقدمة من الصرف الصحي باستخدام مواسير من الفخار مكونة من قدور طويلة بدون قاع داخل بعضها البعض تسير عبر الحوائط لطرد مياه الصرف خارج المباني للتهوية وتلطيف الجو



المنطقة الرهبانية). والقديس مكاريوس الإسكندري (الذي تولى رئاسة رهبان المنطقة).

استعمل الفنان أكاسيد المعادن في التلوين بعد أن أذابها في ماء الجير، مع ترطيب السطح المراد الرسم عليه بالماء، وكانت مجموعة الألوان المستخدمة هي الأخضر والأسود والأصفر وقليل من الأبيض والأزرق.

أما قاعات وحنيات الصلاة فقد ازدانت بصليب داخل الحنية تحيط به رسومات للأزهار ورسومات لأعمدة تحيط بهذه الحنيات على الجانبين. وهذه الزخارف على قدر بساطتها فإنها مريحة للعين وتشير إلى تخصيص المكان للصلاة. أما أشكال الصليب فهي كثيرة ومتنوعة ولها شكل يميزها عن بقية المناطق الرهبانية الأخرى في مصر، وخاصة أن بعض رسومات الصليب الملونة يحف بها على الجانبين طيور ملونة تظهر وكأنها تقف أمام الصليب بخشوع.

هذه الرسومات المختلفة الموجودة على حوائط مجمعات كيليا تمثل إضافة أساسية للتعرف على خصائص الفن القبطى الذائع الصيت فى المنسوجات والعمارة. فقد كشفت الرسومات والزخارف المتعددة، التي أظهرتها عمليات التنقيب، التي أجريت على أيدي أعضاء البعثتين السويسرية والفرنسية، النقاب عن أصل علم الأيقونات. أنواع هذه الرسومات تعود في الغالب إلى الاتجاه الديني حيث رسم الصليب في المقام الأول، إلا أن الدافع الفني كان يغلب المغزى الديني للعمل.

المجتمع الرهباني

كذلك حفلت جدران منطقة كيليا بكثير من النصوص القبطية وأيضا اليونانية، وهى في مجملها صلوات وتذكارات للرهبان المنتقلين مثل: (رقد في الرب أبونا الصالح بوهى Pohy في ١٥ من شهر بؤونة، وأبونا سرابيون Serapion فى اليوم الرابع من شهر برمودة، وأبونا أورى Ory فى ٢١ من شهر طوبة، وأبونا أبرآم Abraam من جبل الأسقيط فى ٢٠ من شهر هاتور). بالإضافة إلى نصوص أخرى بها صلوات وطلبات من أجل بعض العائلات، وفى الغالب تكون عائلات الرهبان أو من زوار منطقة كيليا.

والحقائق التي اكتشفت في كيليا ترتب عليها أمران، فمن ناحية قد أمدتنا بمادة موثقة لدراسة العامية القبطية لهذه المنطقة (اللهجة البحيرية) فيما قبل القرن التاسع الميلادي، ومن جانب آخر أمكن الاستفادة من التواريخ المدونة على النقوش في التأريخ لهذه المنطقة مما له بالغ الأهمية في فهم التطور التاريخي لها.

لقد كشفت أعمال التنقيب بمنطقة كيليا عن معلومات غزيرة منها العلاقات التي ربطت المجمع الرهباني في كيليا والمواقع الأخرى في الدلتا وكذلك عالم البحر المتوسط عامة. كما أمدتنا بصورة متكاملة عن مدن الصحراء التي سكنها رجال يسعون إلى التقرب من الله نابذين الحياة الدنيوية، للبعد عن الضغوط السياسية.

من خلال هذه الدراسات وجدنا أن الرهبنة المثالية قد تغيرت رويدا رويدا من خلال التطور المعماري وفن الزخرفة في المجمعات الرهبانية. فقد تطورت حياة البؤس والفقر للرواد الأوائل شيئا فشيئا وفتحت المجال إلى حياة التجمعات التقليدية دون المساس بالغرض الأساسي للرهبنة وهو الاعتزال عن العالم والتفرغ للعبادة والعمل اليدوي. وبذلك وضعوا حجر الأساس للحياة الاجتماعية والروحية التي تدين لها بالكثير حركة الرهبنة المسيحية. وهذا ما أهدته مصر للعالم كله. ■

هوامش

(•) كتالوج كيليا - منطقة الأديرة القبطية بالوجه البحري، إصدار جامعة جنيف بسويسرا عام ١٩٨٩ بمناسبة معرض الآثار القبطية لمنطقة القلالى بمتحف الفن والتاريخ في الفترة (١٢ أكتوبر ١٩٨٩ - ٧ يناير ١٩٩٠).

Ermitages Coptes en Basse-Les Kellia Egypte



ابن العماد الأقفهسى

حائط حول النيل

وأما الحائط الممتد بالجانب الشرقى عن النيل، فذكر المسعودى: أنه لما أغرق الله فرعون ومن معه من الجنود، خشى ما بقى بأرض مصر من الذرارى والنساء والعبيد، أن يغزوهم ملوك الشام والغرب، فملكوا عليهم امرأة ذات رأى وحزم، يقال لها دلوكة. فبنت على بلاد مصر حائطًا يحيط بجميع البلدان، وجعلت عليهم المحارس والأجراس، والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض. وأثر هذا الحائط موجود إلى هذا الوقت، وهو سنة ثمانين وسبعمائة، ويعرف بحائط العجوز.

قال المسعودى: وقيل إنما بنته خوفاً على ولد لها كان كثير القنص، فخافت عليه من سباع البر والبحر. واغتيال من جاوز أرضهم من الملوك وأهل البوادى، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها. وقيل غير ذلك.

فملكتهم ثلاثين سنة، واتخذت بمصر البرابى والصور، وأحكمت آلات السحر وغير ذلك.

